نبائس المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى

ملامحُ عامّةٌ في منهجيّةِ الإمام البخاري في التفسيرِ (منْ خلال كتابهِ الصحيح)

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

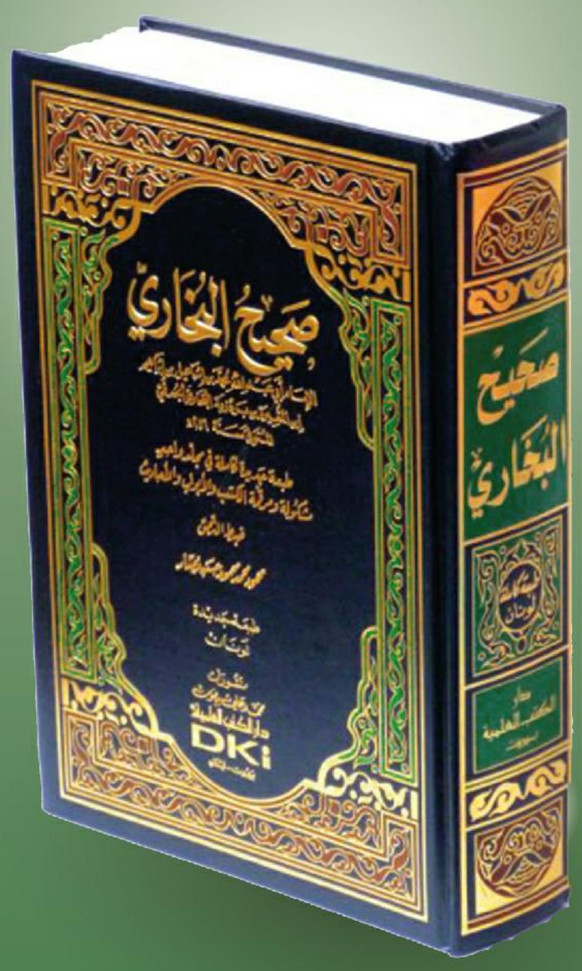

ملامحُ عامَّةٌ في منهجيَّةِ البخاري ﵀ في التفسيرِ منْ خلال كتابهِ الصحيح[1]

أ.د/ عبد السلام مقبل المجيدي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن- كلية الشريعة -جامعة قطر
S1435y@gmail.com

(١) بحث مقدم في المؤتمرالعلمي الدولي، بعنوان: "مدرسة ما وراء النهر للمحدِّثين في ضوء الإمام البخاري والإمام الترمذي والإمام الدارمي"، الذي انعقد بمدينة ترمذ، في الفترة ٢٢-٢٣/١١/ ٢٠٢٣م.

مقدمة

الحمد لله المتفضِّل علينا بجميل آلائه، المتكرم علينا بواسع نعمائه، والصلاة والسلام على صفوة أنبيائه، ومقدم أوليائه، وعلى آله وصحبه وجميع أحبائه.

أما بعد:

فإن الوقوف على مسالك السلف الأولين من خيار هذه الأمة ومحققي علمائها في تفسير كلام الله، وبيان معانيه من أوجب المهمات، وليس بخاف أن التفسير في أولى مراحله إنما كان مندرجًا في أسفار الحديث والسُّنة المطهرة، فكان من الأئمة من المحدِّثين ونقلة السُّنة من يفرد بابًا خاصًا بالروايات التفسيرية المأثورة عن النبي ﷺ، وعن الصحابة رضي الله عنهم، ثم عن أئمة السلف من التابعين ومن تلاهم، وهم مع صنيعهم أبرزوا اختياراتهم التفسيرية ومعالم منهجياتهم في تفسير كلام الله ترجيحًا وتوجيهًا، ووظَّفوا علوم الآلة وأولها علم لغة العرب وفروعها، وإنما تظهر هذه المعالم، وتتجلى ملامح هذه المنهجيات لمن أقبل على ما رقموه في أسفارهم متصفحًا متفحصًا.

وأما من وضع كتابه وفق طريقة المسانيد بجمع أحاديث كل صحابي على حدة، لا وفق التقسيم إلى أبواب، فإنك واجد الروايات التفسيرية مفرقة في مسانيد الصحابة بين مقل منها ومكثر.

ومن هؤلاء الأئمة الفحول شيخ المحدثين ومقدمهم إمام الدنيا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله، حيث عقد بابًا في صحيحه للتفسير ومروياته، ووظَّف بروح علمية عالية، وذكاء بالغ تلك الثروة التفسيرية، وأبرز شخصيته العلمية الفذة في عرضها، وأعمل ما يمتلكه من مقدرات وملكات علمية في خدمة الدرس التفسيري بما يتناسب ووجه تأليفه لكتابه الصحيح.

وقصدت في هذه الورقات أن أبرز بعض الملامح العامة في منهجية البخاري في التفسير من خلال كتابه الصحيح، وأن أقف على طريقته في سوق وعرض المرويات التفسيرية، وهذا بعض من الوفاء لهذا الإمام الجليل، وإبراز لجانب ربما غفل عنه في دراسة الشخصية العلمية، والجهد التأليفي له عليه من ربه واسع الرحمات.

الدراسات السابقة:

كثرت الدراسات المتعلقة بهذا الكتاب العظيم إلا أن مما يتعلق بالقضايا التفسيرية فيه وجدت هاتين الدراستين:

١) "اختيارات الإمام البخاري في صحيحه التي لم يعزها إلى أحد في صحيحه"، لعايد بن عبد الله العيد الحربي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الجامعة الإسلامية بالمدينة ١٤١٠هـ.

٢) "أسماء سور القرآن عند الإمام البخاري في صحيحه"، للدكتور/ حاتم بن عابد القرشي، بحث منشور في مجلة تبيان للدراسات القرآنية ١٤٣٥هـ.

وكلاهما لم يتعرضا لمنهجية الإمام البخاري في عرض تفسيره بصورة مستقلة.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن نقدِّم له بتمهيد، نترجم فيه بإيجاز للإمام البخاري ﵀، ونعرِّف بكتابه الصحيح، ثم بعد ذلك نعرض معالم منهجيته متتابعة، مقرونة بالنماذج التطبيقية من كتاب الصحيح للبخاري ﵀.

تمهيد

البخاري وكتابه الصحيح

أولًا- ترجمة الإمام البخاري[1]:

هو أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف الجعفي بالولاء، البخاري الحافظ.

كانت ولادته يوم الجمعة بعد الصلاة، لثلاث عشرة، وقيل لاثنتي عشرة ليلة خلت منن شوال سنة أربع وتسعين ومائة، وقال أبو يعلى الخليلي: إن ولادته كانت لاثنتي عشرة ليلة خلت من الشهر المذكور.

وهو الإمام المحدث المشهور صاحب الجامع الصحيح والتاريخ، رحل في طلب الحديث إلى أكثر محدثي الأمصار، وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق والحجاز والشام ومصر، وقدم بغداد، واجتمع إليه أهلها واعترفوا بفضله

وتوفي ليلة السبت بعد صلاة العشاء، وكانت ليلة عيد الفطر، ودفن يوم الفطر بعد صلاة الظهر، سنة ست وخمسين ومائتين -رحمه الله تعالى-.

ثانيًا- تعريف بكتاب البخاري (الصحيح)[2]:

- عنوان الكتاب: الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه

- عدد أحاديثه بالمكرر (٧٥٦٣)، أما بغير المكرر فعددها (١٥١٣).

---

(١) ينظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، (٣٢٢/٢)، تاريخ دمشق، ابن عساكر، (٥٠/٥٢) طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى، (١/ ٢٧١)، سير أعلام النبلاء الذهبي، (١٠/ ٧٩)، وبالنسبة لعدد الأحاديث فقد صوبته من خلال الإحصاء.

(٢) ينظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، (٣٢٢/٢)، تاريخ دمشق، ابن عساكر، (٥٠/٥٢) طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى، (١/ ٢٧١)، سير أعلام النبلاء الذهبي، (١٠/ ٧٩)، كشف الظنون، (١/ ٤٤٣).

- وهو أول كتاب أُلف في الصحيح المجرد من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، اتفق الجمهور من العلماء على أنه أصح الكتب بعد القرآن الكريم، لبث في تصنيفه ست عشرة سنة.

- وكما يدل اسمه فهو كتاب جامع ومختصر، ولم يقصد البخاري منه جمع كل الحديث الصحيح الذي يحفظه، فهو يصرح أنه بحفظ مائة ألف حديث صحيح، وقد نقل عنه محمد بن يوسف الفربري أنه قال: ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين. وعنه أنه قال: صنفت كتابي الصحيح لست عشرة سنة، خرجته من ستمائة ألف حديث، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله ﷻ، وصنفته في ست عشرة سنة، وما أدخلت فيه إلا الصحيح، وما تركت من الصحيح أكثر.

- وفي صحيح البخاري تكرار للأحاديث وتقطيع لها، وذلك أن البخاري يذكر الحديث في أبواب مختلفة، ويستدل به في كل موقع لحكم معين، فإن الحديث قد يتضمن أحيانًا عدة أحكام، لذا فإنه يقطع الحديث ويورده في أكثر من موقع وتحت أكثر من عنوان.

- كما أن فيه أحاديث معلَّقة، وعدد هذه المعلقات واحد وأربعون وثلاثمائة وألف، وصلها البخاري في مواقع أخرى، والذي لم يصله منها في موضع آخر مائة وستون حديثًا.

- ويوجد فيه أقوال للصحابة والتابعين رضي الله عنهم، اشترط البخاري في الحديث شروطًا متشددة، وقع بالغ في التحري بشأنها حتى أصبحت شروطًا قوية جدًا، فلا يكتفي مثلًا بالمعاصرة بين الراوي وشيخه، بل لا بد أن يكون قد ثبت له لقاء معه.

- مجموع الكتب في صحيح البخاري سبعة وتسعون كتابًا، كل كتاب منها مقسم إلى أبواب، ومجموع أبوابه خمسون وأربعمائة وثلاثة آلاف باب، وحظي الكتاب بخدمة لم يحظ بها كتاب آخر، شرحًا وعدًّا وفهرسة.

معالم منهجية الإمام البخاري في التفسير

عقد البخاري في صحيحه كتابًا للتفسير، وذكر الفربري أن له كتابًا مستقلًا في التفسير يسمى (التفسير الكبير)، ويظهر أنه مفقود ضمن ثروة علمية كبيرة مفقودة من تراثنا الزاخر(١).

وفيما يلي تناولٌ لأبرز معالم منهجية الإمام البخاري في التفسير من خلال كتابه الصحيح:

المعلم الأول: الجمع بين النظائر في القرآن الكريم، والتفريق بين معانيها:

من منهجية الإمام البخاري ﵀ في تفسيره أن يجمع بين النظائر في كتاب الله تعالى، مع إشارته لما أفادته كل لفظة بحدتها من معنى، ومن ذلك على سبيل المثال:

بوَّب ﵀ في صحيحه فقال: "باب: قوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧]" (٢)، ثم نجده عقب سوق الآية يعلِّق على موضع الشاهد منها فيقول: "واحدتها قاعدة "، ثم يتبع هذا النص القرآني بنص قرآني آخر ويكرر ذات الصنيع في قوله -تعالى-: "{وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ} [النور: ٦٠] واحدها قاعد"، وصنيع البخاري هنا شبيه بصنيع أصحاب الوجوه والنظائر ممن عمدوا إلى جمع الألفاظ المتناظرة في كتاب الله تعالى، وبيان الفروق ووجوه المعاني المضمنة في كل لفظ بحدته، مع احتفاظ البخاري ﵀ بالسبق النسبي والتطبيقي لهذه النوع من الدراسة المقارنة لألفاظ القرآن الكريم.

---

(١) ينظر: كشف الظنون، (١/ ٤٤٣).

(٢) صحيح البخاري، باب: قوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ربنا تقبل منا إنك أنت سميع العليم} [البقرة: ١٢٧] (٢٠/٦).

ولا يقف جهد البخاري ﵀ عند هذا بل يُحضر الشاهد من قول النبي ﷺ تعزيزًا وزيادة إيضاح وتقرير لمعنى قد أورده سابقًا، وهو هنا لفظ (القواعد) في الآية فينقل حديث عائشة رضي الله، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «ألم تري أن قومك بنوا الكعبة واقتصروا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «لَوْلَا حدثان قومك بالكفر»[1].

المعلم الثاني: احتفاؤه بنقل التفسير اللغوي عن السلف:

ومثال ذلك ما أورده من مرويات تفسيرية متكاثرة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير سورة الأنعام، فقد عنون لذلك فقال: " تفسير سورة الأنعام. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما-: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} [الأنعام: ٢٣]: «مَعْذِرَتُهُمْ»، {مَّعْرُوشَٰتٍ} [الأنعام: ١٤١]: «مَا يُعْرَشُ مِنَ الكَرْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ»، {حَمُولَةً} [الأنعام: ١٤٢]: «مَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا»، {وَلَلَبَسْنَا} [الأنعام: ٩]: «لَشَبَّهْنَا»، {لِأُنذِرَكُم بِهِۦ} [الأنعام: ١٩]: «أَهْلَ مَكَّةَ»، {يَنْعَوْنَ} [الأنعام: ٢٦]: «يَتَبَاعَدُونَ». {تُبْسَلَ} [الأنعام: ٧٠]: «تُفْضَحُ». {أُبْسِلُواْ} [الأنعام: ٧٠]: «أُفْضِحُوا»، {بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ}: «البَسْطُ الضَّرْبُ»، وَقَوْلُهُ: {ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ} [الأنعام: ١٢٨]: «أَضْلَلْتُمْ كَثِيرًا»، {مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ} [الأنعام: ١٣٦]: «جَعَلُوا لِلَّهِ مِنْ ثَمَرَاتِهِمْ وَمَالِهِمْ نَصِيبًا، وَلِلشَّيْطَانِ وَالأَوْثَانِ نَصِيبًا»، {أَكِنَّةً} [الأنعام: ٢٥]: «وَاحِدُهَا كِنَانٌ»، {أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ} [الأنعام: ١٤٣]: «يَعْنِي هَلْ تَشْتَمِلُ إِلَّا عَلَى ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، فَلِمَ تُحَرِّمُونَ بَعْضًا وَتُحِلُّونَ بَعْضًا؟» {مَّسْفُوحًا}

(١) صحيح البخاري، ٤٤٨٤، (٢٠/٦).

[الأنعام: ١٤٥]: مُهْرَاقًا، {صَدَفَ} [الأنعام: ١٥٧]: " أَعْرَضَ، أُبْلِسُوا: أُوبِسُوا "، وَ{أُبْسِلُواْ} [الأنعام: ٧٠]: «أُسْلِمُوا»، {سَرْمَدًا} [القصص: ٧١]: «دَائِمًا»، {ٱسْتَهْوَتْهُ} [الأنعام: ٧١]: «أَضَلَّتْهُ»، {تَمْتَرُونَ} [الأنعام: ٢]: «تَشُكُّونَ»"(١).

ويغلب على الظن أن قصد البخاري ﵀ من نقل هذا الكم الهائل من التفسير اللغوي عن ابن عباس وغيره من مفسري السلف –رضي الله عنهم ورحمهم- واحتفائه به في صحيحه تقرير حجية التفسير اللغوي من جهة، وتقرير أن تفسير السلف وفق النظر اللغوي حجة ينبغي قبولها؛ إذ هم أهل العربية الذين يحتج بهم، وإليهم في معرفة ألفاظها وأساليبها المرجع.

يؤكد المحقق الشاطبي ﵀ أن مقتضى تقرير أنَّ القرآن عربي "أنه في ألفاظه، ومعانيه، وأساليبه، عربي بحيث إذا حقق هذا التحقيق، سُلك به في الاستنباط منه، والاستدلال به مسلك كلام العرب في تقرير معانيها، ومنازعها في أنواع مخاطباتها خاصة، فإنَّ كثيرًا من الناس يأخذون أدلة القرآن بحسب ما يعطيه العقل فيها، لا بحسب ما يفهم من طريق الوضع، وفى ذلك فساد كبير، وخروج عن مقصود الشارع "(٢).

المعلم الثالث: التنبيه إلى الفروق الدقيقة في فهم النصوص القرآنية:

مما نلمحه ونحن نتأمل تفنن شيخ المحدثين البخاري في سوق مرويات التفسير في صحيحه أنه يعمد إلى الأحاديث المتضمنة لكشف خفي المعاني، ودقيق الدلالات والفروق بين النصوص القرآنية.

(١) صحيح البخاري، (٥٥/٦).
(٢) الموافقات، (٣٩/١).

مثال ذلك ما رواه بسنده عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قال: قلت لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ حَدِيثُ السِّنِّ: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللَّهِ تبارك وتعالى: {إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ} [البقرة: ١٥٨]، فما أُرَى عَلَى أَحَدٍ شَيْئًا أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «كَلَّا، لَوْ كَانَتْ كَمَا تَقُولُ، كَانَتْ: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَنْصَارِ، كَانُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ، وَكَانَتْ مَنَاةُ حَذْوَ قُدَيْدٍ، وَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بَيْنَ الصَّفَا والمروة، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺعَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ} [البقرة: ١٥٨]»[(١)].

وبالتأمل في هذا الأثر نلمس عظيم اهتمام البخاري بدلالات الألفاظ وتبين دقيق الفروق والمعاني بينها، كما يمكن أن نستلهم من ذلك أيضًا حرصه على إبراز منهجية التعليم في الدرس التفسيري في عهد الصحابة والسلف الصحابة، وحرصهم على التفقيه، وإيصال المعاني، وتوضيح مقاصد النص القرآني، اتكاء على مكنة علمية، وثروة لغوية صميمة، وهذا ما نأخذه من قول أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: «كَلَّا، لَوْ كَانَتْ كَمَا تَقُولُ، كَانَتْ: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا».

(١) صحيح البخاري، ١٦٤٣، (١٥٧/٢).

المعلم الرابع: عرض القراءات القرآنية وتوظيف القراءات التفسيرية في البيان والترجيح:

مما يستوقفنا ونحن نعرض لملامح منهجية البخاري ﵀ في تفسيره من خلال صحيحه أنه يورد القراءات التفسيرية لبيان معنى أو قول تفسيري، ومثال ذلك ما ذكره في " باب: قوله: {أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٨٤] "[(١)]، فبعد أن بوَّب بهذا نراه ينقل لنا الأقوال التفسيرية في بيان معنى الآية، ومما يورده قراءة تفسيرية تؤيد أحدها.

قال البخاري ﵀: "وقال عطاء: يفطر من المرض كله، كما قال الله تعالى، وقال الحسن وإبراهيم في المرضع والحامل: إذا خافتا على أنفسهما أو ولدهما تفطران ثم تقضيان، وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس ﵁ بعد ما كبر عامًا أو عامين، كل يوم مسكينًا، خبزًا ولحمًا، وأفطر"، ثم يعلِّق البخاري ﵀ بعبارته مشيرًا إلى القراءة الثابتة المتواترة فيقول: "قراءة العامة {يُطِيقُونَهُۥ} وهو أكثر"، وعلى إثرها يروي بسنده إلى عَمْرُو بْنُ دينار، عن عطاء: سمع ابن عباس يقرأ: {وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين}. قال ابن عباس ﵄: «ليست بمنسوخة، هو الشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة، لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكينًا»[(٢)].

(١) صحيح البخاري، (٦/٢٥).
(٢) صحيح البخاري، ٤٥٠٥، (٦/٢٥).

فها أنت تلحظ أن البخاري ﵀ نص على القراءة المتواترة الثابتة أولًا، لكنه لم يهمل القراءة التفسيرية عن حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس ﵄، وهذا يؤكد ما للقراءات التفسيرية من أهمية في الدرس التفسيري لدى البخاري ﵀.

المعلم الخامس: أثر السياق في بيان معنى الآية وخفي دلالتها عند البخاري:

السياق قاعدة معتبرة لدى أهل التفسير سواء في بيان معاني الآيات، أو في الترجيح بين الأقوال التفسيرية المتباينة. يقول العلامة المحقق ابن القيم ﵀ مؤكِّدًا على أهمية اعتبار السياق في فهم كلام الله: «السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة. وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته »[1].

وللبخاري ﵀ اهتمام بالغ بالسياق واعتباره، ويظهر ذلك من خلال المرويات التفسيرية عن السلف التي احتفلت بالسياق واعتبرته فيصلًا وعمدة في فَهْم الآيات وبيان دلالاتها.

ومثال ذلك ما رواه البخاري ﵀ بسنده عن ابن أبي مليكة: أن علقمة بن وقاص أخبره: أن مروان قال لبوابة: اذهب يا رافع إلى ابن عباس ﵄ فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لا يفعل، معذبًا لنعذبن أجمعون. فقال ابن عباس ﵄: وما لكم ولهذه، إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس ﵄: {وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ

(١) بدائع الفوائد، (٩/٤).

-كذلك، حتى قوله- يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ} [آل عمران: ١٨٧-١٨٨] [(١)].

وهذا الحديث كما يبرز ملمحًا من ملامح الدرس التفسيري لدى البخاري ﵀ وهو اعتبار قاعدة السياق في التفسير، وبيان المُشْكِل، ودفع المعاني المتوهمة عن كتاب الله ﷻ، فإننا نلمس منه أيضًا إشارته إلى اهتمام السلف الصالح من لدن الصحابة فمن بعدهم بالسياق، وأنه منزع معتبر، وقاعدة تفسيرية صميمة يتوجب على من عالج التفسير أن يأخذ بها اقتداء بأئمة التفسير الأولين من صالح سلف الأمة.

المعلم السادس: تفسير القرآن بالقرآن عند البخاري ﵀:

لا ريب أن أول ما يتوجب التوجه إليه عند تفسير كلام الله أن يقصد إلى كلامه سبحانه، فيفسر القرآن بالقرآن، وقد أجمع على هذه الطريقة وارتضاها المسلمون، وهم إنما تلقوا هذه المنهجية ابتداء عن نبيهم ﷺ، فمما قرره أَبُو إِسْحَاق الشاطبي ﵀ أَن الْقُرْآن يتَوَقَّف فهمُ بعضه على بعض، فَقَالَ: "يتَوَقَّف - يَعْنِي الْقُرْآن الْكَرِيم -فهم بعضه على بعض بِوَجْه مَا، وَذَلِكَ أَنه يبين بعضه بَعْضًا، حَتَّى إِن كثيرا مِنْهُ لَا يُفهم مَعْنَاهُ حقّ الْفَهم إِلاَّ بتفسير مَوضِع آخر، أَو سُورَة أُخرى"[(٢)]، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: "إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اخْتُصِر من مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر"[(٣)].

ولأهمية هذا المصدر التفسيري وتأكيدًا على أصالته وضرورته في الدرس التفسيري نجد البخاري ﵀ يهتم اهتمامًا بالغًا فيترجم في صحيحه "باب: {وَلَمْ

(١) صحيح البخاري، ٤٥٦٨، (٦/٤٠).
(٢) الموافقات، (٤/٢٧٥).
(٣) مقدمة في أصول التفسير، (ص: ٣٩).

يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ} [الأنعام: ٨٢] "[١]. ثم يروي بسنده عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قال: لما نزلت: {وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ}. وأينا لم (لا) قال أصحابه: وأينا لم يظلم؟ فنزلت: {إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ} [لقمان: ١٣] [٢].

المعلم السابع: التحليل اللفظي في تفسير البخاري رحمه الله:

يتحفنا البخاري رحمه الله بالإضافة إلى ما سبق من معالم منهجية في تفسيره بمعلم آخر جديد لا يقل أهمية عن كل ما سبق، إنها منهجية التحليل اللفظي للكلمات القرآنية، وهي منهجية علمية رصينة، تستقرئ صيغ اللفظة ومشتقاتها وما تضمنته في كل منها من دلالات ومعان تتعاضد لتقدم لنا ثروة من المعاني السنية لكلام الله العزيز.

مثال على اهتمام البخاري بالتحليل اللفظي:

عقد البخاري رحمه الله بابًا فقال: "بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ} [الأنعام: ١٥١]"[٣]، ثم يتبع ذلك بقوله: "{وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ} [الأنعام: ١٣٨]: حرام، وكل ممنوع فهو حِجر محجور، والحجر كل بناء بنيته، ويقال للأنثى من الخيل: حجر، ويقال للعقل: حجر وحجى، وأما الحجر فموضع ثمود، وما حجرت عليه من الأرض فهو حجر، ومنه سمي حطيم البيت حجرًا، كأنه مشتق من محطوم، مثل: قتيل من مقتول، وأما حجر اليمامة فهو منزل".

(١) صحيح البخاري، (٥٦/٦).
(٢) صحيح البخاري، ٤٦٢٩، (٥٦/٦).
(٣) صحيح البخاري، (٥٧/٦).

إنك تلحظ البخاري ﵀ هنا لا ينقل رواية تفسيرية عن أحد، وإنما ينبري معتمدًا على حصيلته اللغوية وقاموسه المعجمي الثري ليحلل لك لفظة {حِجْرٌ} الواردة في سورة [الأنعام: ١٥١]، وهذا الصنيع كما يبرز لنا جانبًا من تكامل البناء العلمي في شخصية البخاري ﵀، فإنه يبرز لنا أيضًا قوة التحليل اللفظي وأثره في تفسير آي القرآن، ويجلي لنا حضور هذه المنهجية التفسيرية مبكرًا لدى مدرسة المحدثين، وانعكست تلقائيًا في أسفارهم الحديثية.

المعلم الثامن: إعمال قاعدة (الأصل حمل الآية على الظاهر عند التردد حتى يأتي ما يخرج لفظها عن الظاهر):

هذه قاعدة من أبرز وأهم قواعد التفسير، وتكمن أهميتها في أنها تحفظ للنص القرآن قداسته، وترتفع به عن التلاعب والعبث الذي يمارسه أدعياء القراءات المنحرفة المتقدمين منهم والمحدثين؛ ذلك أن بوابة التفسيرات الباطنية طالما كانت مدخلًا للتشغيب على معاني كلام الله ودلالاته ومقاصده، ومن أكثر من أعمل هذه القاعدة شيخ المفسرين في تفسيره جامع البيان، ومن ذلك قوله مصرحًا في الانتصار لهذه القاعدة مقررًا إياها: «وغير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام إلى باطن لا دلالة على صحته»[(١)].

وتأكيدًا على أصالة هذه القاعدة نجد البخاري ﵀ يورد ما يقررها ويعزز حضورها في الدرس التفسيري.

(١) جامع البيان، (١٥/١).

ومثال ذلك أن البخاري ﵀ عقد بابًا فقال: " باب: {ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ} [التوبة: ٨٠]"[(١)].ثم ساق بسنده إلى نافع، عن ابن عمر ﵄ قال: لما توفي عبد الله، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ليصلي، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إنما خيرني الله فَقَالَ: {ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً}[التوبة: ٨٤]. وسأزيده على السبعين». قال: أنه منافق، قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فأنزل الله: {وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ} [التوبة: ٨٤] [(٢)].

إن هذا الحديث يقرر لدينا أن اعتبار قاعدة (الأصل حمل الآية على الظاهر عند التردد حتى يأتي ما يخرج لفظها عن الظاهر) من تليد العلم، ومنهجية نبوية سالكة في التفسير، حيث احتج بها النبي ﷺ وردَّ على عمر ﵁ حينما قال له: «إنما خيرني الله فَقَالَ: {ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً}[التوبة: ٨٤]. وسأزيده على السبعين».

أما سوق البخاري ﵀ لها في صحيحه فإنه يلفتنا من طرف على إعماله لهذه القاعدة، بما ينبئ عن بدء تبلور التقعيد لأصول التفسير، وإعمال قواعده في الفهم والترجيح، وكل هذا يؤكد وجوب العودة إلى كتب السنن والمصادر الأصلية للحديث

(١) صحيح البخاري، (٦٧/٦).
(٢) صحيح البخاري، ٤٦٧٠، (٦٧/٦).

لمعرفة مناهج المدرسة الحديثية وأعلامها في تناول التفسير، وجرد تلك الأسفار العظيمة واجتلاب الكنوز المعرفية والتأصيل المبكر للتفسير وعلوم القرآن.

المعلم التاسع: حمل الآية على جميع معانيها المحتملة:

القرآن حمَّال أوجه، والأصل عند اختلاف الأقوال التفسيرية في آية ما أن ننظر في احتمال الآية لتلك الأقوال، فإن وجدناها تحتملها على وجه السواء، ولم يكن بينها تضاد بحيث يسقط بعضها بعضًا فإن الأصل أن نقبل جميع الأقوال والمعاني التفسيرية، وفي مثل هذا وما قاربه يقول أبو جعفر الطبري ﵀: "وهذه الأقوال التي ذكرتُها على اختلافها، متقاربة المعاني"(١).

وهذا ما سار عليه البخاري ﵀، وألمح إليه عندما أورد في تفسير قوله تعالى: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا}[الإسراء: ١١٠] سببي نزول:

الأول: ما رواه بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ أنها نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مختف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ} أي بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن {وَلَا تُخَافِتْ بِهَا} عَنْ أَصْحَابِكَ فَلَا تُسْمِعُهُمْ {بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا} [الإسراء: ١١٠](٢).

(١) تفسير الطبري، (٧/ ١٢٩).
(٢) صحيح البخاري، ٤٧٢٢، (٨٧/٦).

الثاني: ما رواه هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: (أنزل ذلك في الدعاء)[1].

المعلم العاشر: التفسير بالضِّدِّ:

ومن أمثلة ذلك قوله: «باب: تفسير سورة العنكبوت. قال مجاهد ﷺ: {وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ} [العنكبوت: ٣٨]: ضَلَلة»[2].

المعلم الحادي عشر: تفسير القراءات المتعددة الواردة في الآية أحيانًا:

مثال ذلك قوله: «{فَرِهِين} [الشعراء: ١٤٩]: مرحين، {فارهين} بمعناه، ويقال: {فارهين} حاذقين»[3].

المعلم الثاني عشر: اعتماد النَّسْخ بمعناه القرآني:

مثال ذلك أنه أسند عن القاسم بن أبي بزة ﷺ أنه سأل سعيد بن جبير ﷺ: هل لمن قتل مؤمنًا متعمدًا من توبة؟ فقرأت عليه: {وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ} [الفرقان: ٦٨]. فقال سعيد ﷺ: «قرأتها على ابن عباس ﷺ كما قرأتها عليَّ، فقال: هذه مكية، نسختها آية مدنية، التي في سورة النساء»[4].

المعلم الثالث عشر: سعة العارضة اللغوية تمكنه من إظهار المعاني المتعددة، ويقارن بينها:

فمن أمثلة ذلك: أسند ﷺ «عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ ﷺ قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

(١) صحيح البخاري، ٤٧٢٣، (٨٧/٦).
(٢) صحيح البخاري (١٣٣/٦).
(٣) صحيح البخاري (٦/ ١١١).
(٤) صحيح البخاري، ٤٤٨٤ (١١٠/٦).

«لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحِدَّ فَوْقَ ثَلَاثٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ، فإنها لا تكتحل ولا تلبس ثوب مَصْبُوغًا إِلَّا ثَوْبَ عَصْبٍ».

وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: حَدَّثَنَا هشام، حدثنا حَفْصَةُ: حَدَّثَتْنِي أُمُّ عَطِيَّةَ ﵂: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَا تَمَسَّ طِيبًا، إِلَّا أَدْنَى طُهْرِهَا إِذَا طَهُرَتْ نُبْذَةً مِنْ قُسْطٍ وأظفار. قال أبو عبد الله: الفسط والكست مثل الكافور والقافور. نبذة: قطعة»[1].

النتائج والتوصيات

١) ظهر من خلال البحث في ملامح التفسير عند البخاري ﵀ من خلال صحيحه قوة الملكة التفسيرية لشيخ المحدثين البخاري ﵀.

٢) ظهر أن الأقدمين من المحدثين، وفي مقدمتهم البخاري ﵀ قد التزموا في أسفارهم الحديثية بمعالم وأصول وضوابط في التعامل مع المرويات التفسيرية.

٣) الثراء اللغوي أساس مكين متين في بناء شخصية البخاري ﵀ العلمية، وهي التي أهَّلته ومكَّنته من التعاطي مع النص القرآني باقتدار.

٤) يوصي الباحث بوجوب العودة إلى كتب السُّنن والمصادر الأصلية للحديث لمعرفة مناهج المدرسة الحديثية وأعلامها في تناول التفسير.

٥) يوصي الباحث بجرد تلك الأسفار الحديثية العظيمة واجتلاب الكنوز المعرفية منها، والتأصيل المبكر للتفسير وعلوم القرآن.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥/ ٢٠٤٣ ت البغا).

قائمة المصادر

١) بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون طبعة أو تاريخ.

٢) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

٣) تاريخ دمشق، ابن عساكر، دار الفكر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٤) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٥) سير أعلام النبلاء الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٦) صحيح البخاري، الإمام البخاري، دار طوق النجاة (مصورة من السلطانية)، ط١، ١٤٤٢هـ.

٧) طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى، دار المعرفة، بيروت، بدون طبعة أو تاريخ.

٨) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤١م.

٩) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٤٩٠هـ/١٩٨٠م.

١٠) الموافقات في أصول الشريعة، إبراهيم بن موسى الشاطبي، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧-/١٩٩٧م.

فهرس الموضوعات

مقدمة ٢
الدراسات السابقة ٣
تمهيد ٤
البخاري وكتابه الصحيح ٤
أولًا- ترجمة الإمام البخاري ٤
ثانيًا- تعريف بكتاب البخاري (الصحيح) ٤
معالم منهجية الإمام البخاري في التفسير ٦
المعلم الأول: الجمع بين النظائر في القرآن الكريم، والتفريق بين معانيها ٦
المعلم الثاني: احتفاؤه بنقل التفسير اللغوي عن السلف ٧
المعلم الثالث: التنبيه إلى الفروق الدقيقة في فهم النصوص القرآنية ٨
المعلم الرابع: عرض القراءات القرآنية وتوظيف القراءات التفسيرية في البيان والترجيح ١٠
المعلم الخامس: أثر السياق في بيان معنى الآية وخفي دلالتها عند البخاري ١١
المعلم السادس: تفسير القرآن بالقرآن عند البخاري ﵀ ١٢
المعلم السابع: التحليل اللفظي في تفسير البخاري ﵀ ١٣
المعلم الثامن: إعمال قاعدة (الأصل حمل الآية على الظاهر عند التردد حتى يأتي ما يخرج لفظها عن الظاهر) ١٤
المعلم التاسع: حمل الآية على جميع معانيها المحتملة ١٦
المعلم العاشر: التفسير بالضِّدِّ ١٧
المعلم الحادي عشر: تفسير القراءات المتعددة الواردة في الآية أحيانًا ١٧
المعلم الثاني عشر: اعتماد النَّسْخ بمعناه القرآني ١٧
المعلم الثالث عشر: سعة العارضة اللغوية تمكنه من إظهار المعاني المتعددة، ويقارن بينها ١٧
النتائج والتوصيات ١٨
قائمة المصادر ١٩
فهرس الموضوعات ٢٠